الضمير الهارب

للدكتور طه حسين

لم يكن صاحبي ساذجا ولا غليظ القلب طاهره كهذا الضابط الفرنسي الذي أظنك رأيته في دار من دور السينما ، يأتمر مع أصحابه ليغير النظام في فرنسا ويرد الى العرش ابن نابليون . فبينا هو ذات يوم يمشي على رصيف من أرصفة باريس لقي رفيقا من رفاقه في جيش الامبراطور . وكان العهد قد بعد بينهما فوقع اللقاء من نفس الرجلين موقعاً حسناً ، وتحدثا عن الجيش وعن الامبراطور ، وتحدثا عن أمس وعن غد ، ولم يكرها أن يذما يومهما ويسرفا في ذمه . ثم ذهب الصديقان إلى حيث كان الضابط يقيم ليتحدثا في حريه وأمن ودعة . وأخذ الضابط يحدث صاحبه عن أصدقائهما وما يأتمرون به ، ثم ما زال الحديث ينتقل بهما من موضوع إلى موضوع حتى عرف الضابط أن صديقه لم يقم على عهد الامبراطور ، وانما آثر لين الحياة فعمل في جيش الملك . هنالك لم يستطع الضابط أن يلوم صاحبه ولا أن يعاتبه ، ولا أن يناقشه في شيء . ولم يزد على أن اطفأ المصباح حتى لا يرى وجه هذا الصديق الخائن . وفهم الرجل عن صديقه فانصرف عنه خزيان أسفا .

لم يكن صاحبي ساذجا غليظ القلب طاهره كهذا الضابط الفرنسي ، وانما كان رجلا مترفا لا في حياته المادية ، بل في حياته المعنوية خاصة . كان مترف العقل جدا لا يكتفي بظواهر الأشياء ولا يقنع بحقائقها ، وانما يبغي شيئا أرقى من الظواهر وأعمق من الحقائق كأنه اللب والخلاصة لكل شيء . وهو اذا وصل الى هذه الخلاصة وذلك اللب لم يقنع بهما وانما تخير منهما أنقاهما وأرقاهما وأشدهما ملاءمة لذوقه الممتاز ، والذوق الرفيع ، والشعور الراقي ، والنفس الأبية العالية . وكان صاحبي هذا قوي الحس جدا ، ولكنه كان شديد الازدراء للحس ، يضعه في موضعه الطبيعي فلا يكبره ولا يغلو في العناية به ، ولا ينتظر منه الا ما ينتظر من الاداة التي لا يراد منها الا ان تؤدي العمل الذي هيئت له ، فهو لا يريد من حسه الا ان ينقل اليه صور الحياة الخارجية ، فاذا نقلها اليه شغل بها فحقق ودقق ، وفحص وصفى ، وآثر نفسه بخلاصة ما ينتهي اليه التحقيق والتدقيق والتمحيص والتصفية ، فغذى به عقله وقلبه وشعوره ؛ وفكر فيه فاطال التفكير ، واستخرج منه اقصى ما يستطيع استخراجه من اللذة والألم ، ومن العبرة والعظة ، ومن الغبطة والحزن .

وكان صاحبي هذا بحكم هذا المزاج الخاص معقدا شديد التعقيد متعبا لنفسه ولأصحابه واصدقائه جميعا ، وكان كثيرا ما يسأل نفسه عما يريد فلا يجد لهذا السؤال جوابا . وكان اصدقاؤه يسألونه عما يريد فلا يجدون لهذا السؤال جوابا . فلما استيأسوا منه اخذوا يسألون انفسهم عما يريد فلم يجدوا لهذا السؤال جوابا . فقبلوه على علاته ، واحبوه على ما فيه من مشقة وتعقيد . وكانت حياته وحياة أصحابه هينة لينة مستقيمة تمضي في طريق لا عوج فيها ولا التواء ، كما كانت حياة الناس كلهم في بعض اوقات الامن والدعة والهدوء ، فكان راضيا عن أصحابه ، وكان اصحابه راضين عنه . وكان ما يعرض له ولهم من مصاعب الحياة ومشكلاتها لا يزيد على ان يكشفه لهم فيحبه اليهم ، ويكشفهم له فيحببهم اليه . ولكن هدوء الحياة ودعتها واضطراد الامن فيها واستقامة الطرق لسالكيها ليست امورا محتومة مقضية للناس او مقضية عليهم ، قد أخذوا بها عهدا على الظروف والايام . وانما هي أمور ممكنة تتاح حينا وتمتنع أحيانا ، تتاح فيسعد الناس ، وتمتنع فيشقى الناس . تتاح فيجمل بعض الناس ببعض ، ويحب بعض الناس بعضا ، ويطمئن بعض الناس الى بعض ، لان ظروف الحياة لا تكرههم على ان يدقق بعضهم في امتحان بعض ، ويحقق بعضهم في ابتلاء بعض . ثم تمتنع فاذا الناس يتعارفون ، ولا يلبثون ان يتعارفوا حتى يتناكروا ويتدابروا . ويقوم الشك منهم مقام اليقين ، ويقوم الحذر منهم مقام الاطمئنان ، وتقوم الفرق منهم مقام الصراحة ، ويقوم البغض منهم مقام الحب ، واذا هم يندمون على حلمهم القديم ، واذا هم يحزنون على اطمئنانهم الماضي ، واذا هم يتمنون لو ردالله عليهم تلك الأيام الحلوة التي كانوا يستمتعون فيها بلذة الجهل وحلاوة الغفلة ونعيم الثقة ، وأعفاهم من هذه الأيام التي يشقون فيها بألم المعرفة ومرارة الفطنة ويؤس الشك .

وكان صاحبي قد فتح لنفسه الأبواب كلها على مصاريعها كلها ليتلقى كل شيء من كل شيء ومن كل انسان . ثم ليسعد بهذه الصفية والتنقية ، وبهذا التمحيص والتحقيق ، وبتخير الثمرات من كل ما كان يجتمع له من الجهد والردى . فلما تكرت الأيام لم يغلق من أبواب نفسه بابا ، وانما نظر فاذا النفوس تغلق من دونه نفسا

فنفسا ، واذا أبوابها تغلق من دونه بابا فبابا . وإذا ما كان يجتمع له من الملاحظات يقل شيئا فشيئا ، ويندر حتى كاد لا يصبح شيئا . واذا ما بقى له من هذه النفوس القليلة التى ثبتت للمحن ، وامتنعت على الخطوب ، وأبت أن تلين قناتها للاحداث ، قد أخذ يغشاها من حين الى حين لون رقيق جدا من الحياء ، ثم من الغلو فى الحياء ، ثم من الأشفاق ، ثم من الاسراف فى الأشفاق ، ثم يتكاثف اللون ويتكاثف ، وتضاف طبقات منه الى طبقات حتى يصبح احتياطا وحذرا ، وحتى يستحيل الى حجاب كثيف صفيق لا تنفذ من دونه نفس الى نفس ، ولا ينتهى من دونه قلب إلى قلب ، ولا يتحدث من دونه ضمير الى ضمير ، واذا صاحبى يلقى أصحابه فلا يلقى منهم الا وجوها ، ويصافح أصحابه فلا يصافح منهم الا ايديا ، ويحدث أصحابه فلا يكون بينه وبينهم الا حركات الألسنة فى الأفواه ، وخروج الألفاظ من الشفاه ، وانتهاء الأصوات الى الآذان ، ثم وقوفها دون هذه الأبواب التى قد غلقت تغليقا ، وهذه الأستار التى قد اسدلت إسدالا ، على انه هو أيضا لم يكن أقل من أصحابه واحبائه تغليقا لابواب نفسه ، والقاء للحجب والاستار بينه وبينهم ، فقد آذاه ما رأى منهم كما آذاهم ما رأوا منه ، فكان منه هذا الحياء الذى كان منهم ، ثم أخذ هذا الحياء يتعقد فى نفسه كما كان يتعقد فى نفوسهم حتى أصبح اشفاقا ثم شكا ثم احتياطا وحذرا . ولكن حياء صاحبى لم يكن كحياء اصدقائه ، كانوا يستحون منه وكان يستحى لهم ، كانوا يشفقون منه وكان يشفق عليهم . كان يحذرون منه وكان يحذر عليهم ، ولكنه الحياء والاشفاق والحذر على كل حال . ولكنه تغليق الأبواب والقاء الأستار والحجب على كل حال . ولكنه انقطاع الاسباب وفساد الصلات على كل حال . ولكنها العزلة بين قوم لم يكونوا يستطيعون أن يعتزل بعضهم بعضا ، والفرقة بين قوم لم يكونوا يستطيعون ان ينعموا بالفراق ، ولكنه الرياء بين قوم لم يكونوا يحتملون الرياء ، ولكنه هذا الالم المبهض الذى ينشأ عن الفراق والناس مجتمعون ، وعن البعد والناس متقاربون ، وعن القطيعة والناس متواصلون . ولكنه العذاب الذى يجده الناس حين يتحدثون بالسنتهم لا بقلوبهم ، وحين يسمعون بآذانهم لا بنفوسهم ، وحين تتصافح ايديهم وتتباعد بين ضمائرهم ونياتهم الآماد ، الا من الف منهم هذه الحياة واطمأن اليها ووجد فيها مثل ما كان يجد فى تلك الحياة من اللذة والراحة والنعيم لأنه فارق اصدقاء فوجد مكانهم اصدقاء آخرين ، ونأى عن احباء فاستقر فى احناء آخرين .

هنالك نظر صاحبى الى نفسه ، فاذا هو قد اصبح اداة من الادوات تسعى مع النهار وتعود مع الليل ، تلقى الناس فتحدث اليهم وتسمع منهم دون أن تعقل ما يصدر عنها أو تذوق ما يصدر اليها من حديث . اداة تذهب وتجىء تتلقى آثارا من ادوات مثلها ، وتحدث آثارا فى ادوات مثلها ، ولكنها آثار ظاهرة آلية لا قوام لها ولا لذة فيها ولا اثر للحياة القوية العاقلة المفكرة فى مظاهرها ، انما هى اداة ممثلة لا اكثر ولا أقل . تعمل مع ادوات ممثلة لا أكثر ولا أقل . وكانت لصاحبى بقية من قوة فى النفس ، وفضل من حياة فى الضمير ، وأثر من حزم فى الارادة ، وقليل من ذلك الترف العقلى الذى كان يستمتع به ايام كان الناس ناسا ، وحين كانت الحياة حياة . فاكبر ما انتهت اليه اموره وامور اصحابه من هذه الصفة التى يجد فيها الرجل نفسه ولا يؤمن فيها الا بغيره . أكبر ذلك وضاق به وأزمع أن يعتزل هذه البيئة التى لا يستطيع أن يكون فيها الا اداة مسخرة . ولكنه اعتزلها ولم يعتزلها ، قر فى داره وعاش بين أهله ، لم يسع الى أحد ولم يفكر فى لقاء أحد ، وكان يظن أن هذه العزلة ستغنيه وتحميه وترد اليه نفسه بريئة من النفاق معصومة من الفساد . ولكنه لم يلبث ان استيقن انه لم يصنع شيئا . فهو يعتزل الناس ولكن الناس لا يعتزلونه ، يعرض عنهم فيقبلون عليه ، يقعد عنهم فيسعون اليه ، يكف عنهم حياءه لهم واشفاقه عليهم فيحملون اليه حياءهم منه ، واشفاقهم منه ، ويظلون فى ذلك يحسبون أنهم يخدعونه عن أنفسهم ، أو يحسبون أنهم يخدعون أنفسهم عن انفسهم . فلما استيأس صاحبى من نفع هذه العزلة ، واستيقن أنه لا أمل له فى أن يظفر بنفسه صافية وقلبه طاهرا ، وضميره حيا ، الا إن ترك البيئة كلها وهاجر من أرض الى أرض ، وارتحل عن وطن الى وطن ، أسر ذلك فى نفسه وأظهر لنا معشر أصدقائه المخادعين له ولا نفسنا مثل ما كان يظهر من حسن اللقاء ولطف المؤانسة حين كنا نزوره ونجلس اليه . ثم سعيت اليه ذات يوم لاقضى معه ساعة من ساعات الفراغ ، وما أكثر ساعات الفراغ فى حياتنا نحن المصريين فلم أجده ، وسألت أين يمكن أن يكون فلم أدل عليه . وسألت متى يمكن أن يعود فلم أنبأ بشىء . فعدت محزونا لا لأنى لم ألقه ، بل لأنى لم ألق عليه ثقل ما كنت أحتمل من الضجر والضيق والفراغ ، ولأنى لم ألق فى نفسه أنى أوثره بالحب ، واعتقد أنه يؤثرنى به . لأنى لم أعد اليه شيئا من هذا الرياء الذى يهديه بعضنا الى بعض فى كل يوم ، ولم أتلق منه شيئا من هذا الرياء الذى

(البقية على صفحة ٨٠٠)